

•• النهاية

عبدالستار خليف *



مدخل ..
من النهاية ، تولد البداية ...

- ١ -

الرجل يحتضر .
دعوه يمت في أمان ..
ظل يعاني سكرات الموت .
والجميع حوله .. في صمت .
انتظاراً لطلوع السر الإلهي .
توقفت الزفرات الحارة ، دارت النظرات ،
تتطلع في أنحاء المكان ، كأنما تلقي تحية
الوداع . الجميع في انتظار ملاك الموت
ليحمل الروح ، ويرحل .
طافت النظرات المتعبة ، التي خبأ فيها
النور ، إلا من بصيص ضوء . تحركت شفتاه
الجافة ، غمغم ببعض الكلمات ، مالت عليه
كبريات بناته .. تنصت إلى مايقول . ووقف
الجميع مشدوهين ، يرهفون السمع ،
أصوات أنفاسهم تتردد ..

إنها ظريفة ، في رقدتها تعاني آلام
المخاض والوضع . نظروا ناحية مصدر
الصوت وصمتوا . اقتربت الأم الكبيرة من
الباب وطرقت بخفة متسائلة :

ماذا جرى يا حسنية ..
بعد برهة ، أطلت حسنية القابلة من وراء
الباب الموارب ، قالت :

لا شيء . مازالت الولادة متعسرة ..
قالت الأم تشد من عزماتها :

الله معك ..
عقب القابلة وهي تنسحب للداخل :

إن شاء الله ينتعها بالسلامة .
هزت الأم الكبيرة رأسها في صمت ،
وعادت تقف بجوار أكبر الأبناء وهي تنظر
إلى غرفة الرجل العليل ، حيث الصمت
والسكون والعتمة والأنفاس الحارة .

عندما رفع الابن رأسه من بين يديه ،
سألته :

هل سترسل له ؟
زم شفتيه . بعد برهة قال كأنما يحدث
نفسه :

وكيف سننصل به إلا عن طريق مركز أبو
حمص ؟ وأنا لا أقدر أن أغادر البيت . من
وضع ظريفة ، وحالة أبي ..

قالت تستشيريه :

نبعث عبد النبي بالركوبة إلى هناك ،
ويتصل بالهاتف ..

قال معترضاً :

عبد النبي لم يخرج عن حدود البلدة أبداً
!! فكيف يتصل به ؟

قالت بحزم :

والحل ؟!
قال بضيق :

دعي الأمر لي ، فسوف أتصرف ..
قالت لترضيه :

أنت لا غنى لنا عنك هنا ، بجوار رأس
أبيك ..

لم يجب ..
وظل في صمت عميق .

- ٢ -

عندما أفاق الأب من غفوة الموت ..
عاد ينظر حوله ..

يبحث عنه .. بين الوجوه المحيطة به .
لم يجده ..

بصعوبة همس :

أين .. عبدالرازق ؟!
خرج الصوت كحشرجة الموت . صمت
الجميع . تبادلوا النظرات . خرجت الأخت
الكبرى خارج الغرفة ، اقتربت من شقيقها
الأكبر ، رفع بصره إليها . فهتمت ما يود
السؤال عنه . قالت :

ما زال يسأل عنه ...
هز رأسه وغمغم .. لم تسمع كلماته
المبهمة . مازالت متمسكة بالسواد ، بدت
جميلة الملامح في هذا الرداء الفضفاض ،
بيضاء البشرة .. عيناهما لاتزالان تلتصقان
بالدموع . مازال يسأل عنه . وتساءل في
نفسه : مالسر اللذين الذي يود أن يبوح به
قبل رحيله ؟!

وجاء صوت الأخ الأصغر وهو ينتحي
ركناً بجوار الحظيرة ، وأخذ ينتحب بصوت
مكتوم . كان قصيراً وبدنياً وضخم الرأس
، ولهذا كان والده يصف رأسه هذا بمثل
رأس الجاموس ، وذلك لغبائه الزائد عن
الحد وعقله الغليظ . وهو لم يكن عليه
سوى العمل في الحقل من الشروق للغروب
.. حتى في أيام الراحة . يوم الجمعة ، يعمل
في تنظيف حظيرة المواشي وإعدادها
لتكون صالحة لنوم الدواب على الأرضية
النظيفة الجافة . يعمل ويأكل وينام في
صمت ، وهذو . دون أن يشكو أو يتذمر من
شيء . مثلاً من كثرة العمل في الغيط ،
معظم الأيام وحده ، دون مساعدة من
شقيقه الأكبر ، أو إحدى أخواته من البنات
الصغيرات ، أو الأحفاد وخاصة أولاد أخته
الكبرى ، هانم ، الأرملة الشابة . ما من مرة
اشتكى أو تذمر أو صاح محتجاً : أنا أعمل
في الغيط والدار والزريبة ، بالليل قبل
النهار ، ولا أحد غيري يعمل مثلي أو
يتحمل كل هذه المشاق وكثرة الأعمال
المكلف بها !!



■ الصورة بعبسة هلال البادي

في الصباح يذهب إلى الحقل بصحبته
الماشية : بقرة حلوب وجاموسستان
وحمارة قوية وخروف وكلب مقطوع الذيل
يمسك رسن البقرة في يده ، ويطوي حبل
الجاموستين حول رقبتيهما ويدعهما
تسيران أمامه على الطريق المترب
المعشوشب ، كلما توقفت إحدهما ضربها
براحة يده بشفقة وحثها على السير . في
الترعة ، على المورد ، تشرب الماشية
ويأقي الدواب وكذا الكلب يلغ أيضاً في الماء
ثم يواصل السير إلى الحقل لإطعامهم .
أحياناً يساعده أحد الأحفاد الصغار أو ابن
شقيقته الذي يركب على الحماره ، تسير
خلف الموكب ، والصغير يوقها شبه نائم .
يظل طوال يومه بالحقل . ومع القيلولة ،
يرسل الصغير إلى الدار لإحضار الغداء ،
خبز يابس وجبن عتيق وبعض المخلل .
يأكل مع الصغير وهو راض كل الرضا .
حتى قال الأهالي عنه ، إنه أشبه بشور الله
في برسيمه ، يأكل ويشرب ولا يفكر في
أمور الدنيا ولا الآخرة ، لا يؤدي الفرض أو
صلاة الجمعة . ثوبه يظل على بدنه طوال
الأسبوع لا يغيره ، أو يغير ملابسه الداخلية
، أو غطاء رأسه القماشى المتسخ . لا يضع
النعال في قدميه إلا في المناسبات
والأعياد . لم يخادر زمام البلدة مطلقاً ،
فهو مهتم بشئون الأرض مع الرجل الكبير
، يرعى الدواب ، ولا يتخلف يوماً واحداً ..
في الأيام الأخيرة ، أقعد المرض الرجل
بالدار ، فلم يعد يذهب إليه في الحقل
لمساعدته ، بل كان شقيقه الأكبر يشق
عليه في بعض الأيام ليشراف على الزراعة
، والبعض الآخر ، كان ينزل فيها أسواق
الماشية ليعمل بالتجارة أو السمسة
 ويعود آخر النهار ..

هكذا كان حظه ، وهكذا شاء له القدر أن
يكون .
اليوم ، واليوم فقط ، عن سائر الأيام ،
تخلف عن أخذ الدواب إلى الغيط .. لترعى
وتملأ بطونها . وإن كان لم يهملها ، بل ذهب
بها إلى المورد .. فشربت وعاد بها إلى

الحضيرة ، فوضع العليقة أمامها في
المزود ونظف أسفلها وجلس قريباً من باب
الحظيرة في انتظار ما يحدث اليوم ..

لم يأمره أحد بالخروج إلى الحقل
اليوم ، كما لم يأمره أحد بالموكوث بالدار
اليوم ، الجو العام .. حالة من الحزن تسود
أرجاء البيت ، الكآبة تبدو على الوجوه
المترقبة الحائرة . الأم الكبيرة أعلنت
الجميع :

أباكم في الرمق الأخير . استعدوا لأجل
الجنائز ودفنه ..
مكثوا بالدار جميعاً منتظراً لموافاة
الأجل .

عندما تبادلت هانم الأخت الأرملة ،
النظرات ، مع أخيها الأكبر الشقيق ، عادت
نظراتها لتستقر على أخيها الأصغر
عبد النبي ، فهم ماتريد قوله . وقبل أن
تتصرف قالت :

إنه يتعذب ..
قال عما يجول في داخلها :

سأرسل لإحضاره ..
وهب واقفاً .

عندما سار بضع خطوات ، توقف أمام
أخيه الأصغر ، قال له :

خذ الحمار ، اركبها إلى المركز ..
قبل أن يعرف السبب ، أو يستفسر عن
نوعية المشوار ، أجاب :

حاضر ...
قال هذه الكلمة وهو يهب واقفاً ،
استكمل الأخ الأكبر :

سأعطيك رقم هاتف عبدالرازق ..
وعندما تصل المحمودية ، تعبر من فوق
الكوبري الحديدي .. ثم تسأل عن مكتب
الهاتف العمومي . سامع ...

هز رأسه إلى أسفل :

سامع ..
عاد الأكبر يستكمل :

وإن لم تصل إليه ، عليك بالسؤال عن
مكتب الحاج عبدالقادر العزايزة ، من أعيان
أبو حمص ..
عقب الأخ الأصغر مردداً ..

سأسأل عليه ..
استكمل الأخ الأكبر :

بجواره ، ستجد مكتب التليفون
العمومي . مفهوم ..

أجاب بلا وعي :

مفهوم .
دس الأخ الأكبر يده في صدره ، أخرج
كيس نقوده ، فتحه وأخرج من بين طياته
ورقة وقال له وقال له وهو يعيد كيس
النقوده إلى صداريه الداخلي :

اطلب هذا الرقم . وعندما يجيبك البقال
على الطرف الآخر ، قل له إنك أخو
عبدالرازق . سيحضره لك على الخط . عندما
تسمع صوته . لاتبك كعادتك وكن رجلاً
لأول مرة في حياتك ، واطلب منه أن يحضر
حالا ، لأن أباك في مرحلة متأخرة .. ويريد
أن يراك قبل أن يقابل وجه ربه . هل ستعرف
كل هذا ؟!

مال برأسه إلى أسفل ، ونطق بصعوبة وهو
يغالب البكاء أمام الجميع :

أأعرف .. أعرف

وأعطاه الورقة ، امسك بها وثناها عدة
مرات ووضعها بين طيات غطاء رأسه
القماشى المتسخ . دس في يده خمسة قروش
ورقية عليها صورة مولانا الملك المعظم ،
وهمس :

أجرة المكاملة ثلاثة قروش صاغ ،
والقرشان الباقيان احرص عليهما وأنت
عائد ، إياك أن يضحك عليك الباعة في
شوارع المركز ويعطوك حلوى شعر الستات
لتأكلها في الطريق ، عد بالخرقة كاملة ..
قال في صوت مهزوم :

حاضر ...

أخذ العملة الورقية وتفحصها عدة مرات
ودسها بجوار رقم الهاتف .

ستدار حيث اختفى داخل الحظيرة ، خرج
بعد مدة وهو يجذب الحماره من شعر رقبتها
بشدة وعنف كعادته معها ، ضربها يعود
صفصاف يابس وصاح فيها يحثها على
السير :

حالا ههه خفي رجليك يا *مكلوبه ...
قال عبدالفتاح معلقاً على المعاملة
الخشنة للداية :

حاسب عليها ولا تتعبها . سوف تلد بعد
أسبوع ..

قال في طيبة وغباء :

سأركب نصف الطريق .. وأمشي النصف
الباقى ..

قال الكبير وهو يخفي ابتسامته من غباء
شقيقه :

اركب في الذهاب .. حتى لاتتأخر في
الوصول إلى مكتب الهاتف . ودعها تسترح
في العودة . هيا ولا تتأخر وحافظ على بقية
الفلوس مثل عينيك ..

مال برأسه نحو الأرض : حاضر .

قبل أن يغادر الدار ، برزت الزوجة الثانية
الشابة ، وقالت وهي تقف على باب غرفتها
التي يرقد فيها الرجل الرقدة الأخيرة :

اطلب من أخيك عبدالرازق ، أن يأتي على
وجه السرعة ...

نظر إليها وهز رأسه عدة مرات في صمت
، وخرج .

قالت الأم الكبيرة ، الزوجة القديمة ،
وهي تنظر ناحية ابنها الأكبر :

إنني خائفة عليه .. أن يتوه ويضل
الطريق !!

كأنما لم تكن تود أن يرسله ، ولا داع
لمجيء ابن ضرته المتعلم في هذه اللحظات
الأخيرة . عقب عبدالفتاح على مضض :

الطريق واضح مثل الشمس . ومكتب
الهاتف معروف على جسر المحمودية .

قالت في حيرة كأنما تناجى نفسها وتبث
حزنها :

أخوك مسكين !! البهيمه تفهم احسن منه .
هو لا يفهم سوى الغيط والزريبة والعلف
والخبث .. مسكين يا ضنايا . من يوم أن
رفسته البغلة في رأسه وهو صغير ، ظل على
هذا الحال !! حظه سيئ .. ليس له نصيب في
هذه الدنيا !! أه ، يا حبة عيني ...

وتنهدت بمرارة ..

(الجزء التالي الأسبوع القادم)

* كاتب وروائي مصري